هوى الجنون

وقفت سيارة الأجرة الكبيرة في المحطة بانتظار راكِبَيْن. وكنت حينها أعصر سيجارتي عصرا كيما تُستنفذ آجلا ويتسنى لي اللحاق بسيارة الأجرة بعدما كانت الأولى غادرت لتوها دون أن أستطيع إدراكها. لذا قِست سيجارتي أرضا ولازال بها نفسين. ركبت. ثم بعد برهة ركب أحدهم وانعطفت سيارة الأجرة يمينا لتستقيم مع الطريق الرئيسي. كان الشاب الذي يجلس بجواري إلى اليمين مجدور الوجه بسبب من التغضن في خديه. وكان يرتدي بذلة رياضية ويضع سماعات موسيقى في أذنيه. كانت زرقاء كلون السترة الرياضية. ناول السائقَ خمسة دراهم وطلب منه أن يرد إليه ثلاثا، بدل درهمين ونصف الدرهم بحجة أنه سيتوقف في الطريق قبالة محطة المسافرين، أي قبل الوجهة الأخيرة للسائق بأميال. انصاع السائق لطلبه. "أشكر كرمك سيدي. فهي ستكفيني بالكاد لاقتناء الدخان." قال الشاب ثم اعتدل برأسه وتمايل به إلى الأمام وأخذ ينصت للموسيقى بخشوع. كانت السيارة تشق طريقها في الشارع الكبير التي انتصبت على جانبيه منازل صغيرة على غير اتفاق. وكان بإمكانك رؤية الخلاء الذي يلي صف المنازل على اليمين وقد التحف ببساط أخضر وبعض نباتات برية. حول الشاب ناظريه صوبي، ثم قال:

- كم الساعة الآن؟

- الثانية والنصف. أجبته بعد أن أخرجت هاتفي من الجيب بمشقة فرضها تلاصق أجسام الراكبين الأربعة في المقصورة الخلفية.

- شكرا جزيلا لك يا صديقي. إني ممتن. قال.

- العفو. قلت له. ثم تمتمت: يا صديقي ! وبسَط يمناه أمامي، فصافحته.

وقف السائق في علامة الوقوف الإجبارية المنتصبة محاذاةً بباب تراثي يستقبل زائري الضاحية ويودع مغادريها. وكان السائق ينتظر جلاءَ الطريق أمامه لكي ينعطف بسيارته ويندمج في طريق رئيسية أكبر تفضي إلى وسط المدينة. كان أصلع الرأس، يلتحف معطفا ثقيلا من الدان ذا لون بني فاتح. وكان وجهه جهيما ومطهَّما، وكذلك كانت بِنيته. وعلى زاويتي عينيه اللتين غارتا في محيط وجهه ترتسم تجاعيد ثقيلة.

- هيا أيها الرجل الهرِم. تقدم. ماذا تُراك تنتظر !؟ كان صوت الشاب.

- ماذا قلت؟ استفسر السائق الذي كان تركيزه منصبا على السيارة التي أمامه. كان ينتظر أن تخلو الطريق الرئيسية الكبرى من السيارات المارة فتتقدم السيارة أمامه. فيتسنى له استئناف المسير. لكن الشاب خال نفسه على متن طائرة تمضي بلا هوادة. وأعاد أمره على مسامع السائق بنبرة أكثر توترا:

- قلت لك انطلق بخربتك الصدئة هاته. ألا تفهم؟ قلت انطلق يعني انطلق ! ندفع لك مالا لنمضي مرتاحي البال. فإذ بك تفرمل كل دقيقة ألف مرة. وكأن ذلك من تعداد هواياتك. هيا انطلق ولا تجادل.

- أأنت أعمى، أم مخبول !؟ ألا ترى السيارة أمامنا. قال السائق.

- يا لك من سائق غرّ يا ابن العاهرة. تكلتك أمك يا أيها العلجوم القذر. تتوقف ثم تتوقف ثم تتوقف، أتراك تحسب خربتك هاته خلاّطا للبشر؟ قال الشاب بنبرة ثائرة.

- ألجم فمك أيها الكلب المسعور! قلنا لك كانت السيارة أمامنا. ماذا عساي أفعل: أقفز فوقها!؟

في هذه الأثناء، ثار الشاب أكثر وانتصب محاولا الوقوف فخبط سقف السيارة قحفَه بشدة. "أيْ !" أنَّ كقط باغتته ركلات أطفال. "لعنك الله يا ابن العاهرة ! من تحسب نفسك؟. لست وحدك من يملك رخصة سياقة. أنا سائق شاحنة متمرس، ومخضرم في الميدان. وتجربتي تُلزِمك باتباع نصائحي. ليس جديرا بك التوقف في كل مرة. فهذا مما يصيب الناس بالدوار، ويورث الركاب أمراضا أنت جاهل بها وبخطورتها كل الجهل. لهذا أنا أعذرك. نعم، لهذا فقط أعذرك. ونظر إلى كل منَّا نظرة أبله، وقال يؤكد: نعم أعذره يا سادة ! ومضى يسترسل: أضف إلى هذا أنك في مقام أبي. لا تدفعني إذن إلى اقتراف الحماقات في حقك، فأنا أم الحماقات. بل أنا الحماقة ذاتها. حوّل الشاب ناظريه نحو الركاب مرة أخرى وقال بصوت خفيض: أنت تعلمون طبعا أيها الرجال الشرفاء أن ابن عاهرة كهذا الصنف الذي أمامي، الذي تتدلى من رقبته طبقات شحوم قذرة، جدير بأن يهشّم المرءُ أضلاعه. وهذا بديهي. ثم مستأنفا عتابه الأهوج إلى السائق: لولا جهلك بخطورة ما أقدمتَ عليه لطحنْتُك يا مكوّر الوجه كما تُطحن اللحوم الفاسدة. لا شك أن لحمك فاسد كعقلك. أنا لا أشك في هذا الأمر البتة. أظن أنه من الأسلم لك أن تتبع نصيحـ..."

- اصمت يا أيها المعتوه. قال السائق مقاطعا الشاب وقد كان يتصعَّد غيظا. واستطرد مهددا: سأذهب بك إلى حيث يجب أن تكون. سأسلمك إليهم وهم أدرى بما يجب أن يُصنع بالكلاب الفاقدة الوعي.

- أنت ستسلمني إليهم؟ أنت !؟

- نعم. سأذهب بك إلى حيث يجب أن تكون، كي يربّوك.

- فلنذهب إليهم أنا وأنت. لا أخشاك. ولا أخشى أحدا. فلنذهب حالا. أنا وأنت، إلى الجحيم !

وكالثمل، انطلق عثار لسانه بالسباب. فلم يترك بابا من بذيء الألفاظ إلا اقتحمه وقذف مفرداته في وجه السائق. وهو بين الحين والآخر كان يقطع نهر سبابه ويحول ناظريه إلينا كأرنب وديع، ويقول: "عذرا أيها الرجال !". كان يقولها بصوت المتأسف الذي اضطر بسبب من ظلم أحدهم له أن يقول من الأقوال ما لا عهد له به. والحال أنه هو الظالم لا المظلوم. وهكذا استغرق يكيل الشتائم تلو الأخرى، فكان يقول ما يقال، وما لا يقال، وما لعهد امرئ به أن قيل في تاريخ البذاءة الإنسانية كلها، إذ كان يعجن الكلمات على تنافرها بعضها بعضا، ويضعها في خليط جُمَلي واحد، فتأتي بنسقها الكامل الأخير فظّة قاسية، غامضة وهلامية. كان يَخرجُ من فاهه بحر سباب علجمٍ تُوَلِّي أمواجه هاربة خِلطَ مِلطَ.

انخرط جميع الركاب يكيلون النصح، ويسعون لتهدئة الأوضاع المتشنجة بين هذين الخصمين، حتى انشقوا إلى فريقين؛ الراكبان في المقطورة الأمامية تكلفا بأمر الشاب المخبول. ونحن الثلاثة في الخلف أخذنا نهدئ من روع السائق كيما يفقد نباهته وتركيزه فنصبح جميعنا أثرا بعد عين. لكن رغم أن السائق استشاط غضبا وبلغ منه الاستياء مبلغا، ظل يحافظ على ذات الرزانة في السياقة. وخاطب الشاب قائلا:

- صه يا كلبا مسعورا ! (ثم لمظ شفتيه). ألست تفهم؟ (لمظهما ثانية، لكن بشدة وتوتر) لست أملك طائرة لكي أحنقز فوق السيارة وأتجاوزها في الأعالي كي ترتاح سيادتك. الزم الصمت خيرا لك وإلا ندمت.

- كف عن النزق. أتعد نفسك ذكيا؟. تفووه. تعد نفسك ذكيا إذن !

صمت السائق.

- هكذا إذن، تعد نفسك ذكيا. أتتجاسر علي؟ أجب. أتتجاسر علي !؟

صمت الشاب لبرهة.

- لا تتجاسر علي. إني أحذرك أمام هؤلاء الرجال. أنت ابن عاهرة أصيلة في البغاء ! ها أنا ذا أحذرك. واعتبِرهُ آخر تحذير قبل أن أهشم لك فكيك إن أنت نطقت.
اعتدَّ بنفسه أكثر.
- ها أنا ذا أحذرك. وأظن أنني سبق وحذرتك !

صمت السائق، ولم يعد يتفوه إلا بتمتمات تشي بالسخط، فقد يكون أدرك أخيرا أن التعقل مع الحمقى حمق. فاستبد الطغيان بالشاب الذي أحس في قرارة نفسه بأنه أصبح وحده في ساحة الوغى بلا منازع. فارسا مقداما لا يشق له غبار. لقد دحر ذلك الرجل الجهيم التافه الذي لا يجيد شيئا في الحياة غير التوقف، فالتوقف، ثم التوقف. وتعكير مزاج الركاب. زد على ذلك مستواه المتردي حد الانحطاط في السياقة. علجوم كهذا لن يبلي بلاءً حسنا في قيادة دراجة هوائية. فكيف له بأن يقود البشر داخل خربة يدعوها سيارة. هكذا فكر الشاب. وبلغ به الاعتداد بذاته أيما مبلغ. ورفيف من نشوة الانتصار يرفل في عينيه الذابلتين كعيني مصارع ثيران مخمور. وجعل يلوح بسبابته عدة مرات إلى الأمام عن يساره ناحية السائق أن احذَرْ بأسي.

وقبل أن تبلغ سيارة الأجرة محطة المدينة بمسافة بعيدة، أمر الشاب:
- توقف هنا. حالا. أود النزول.

وجه السائق السيارة أقصى اليمين، وأخذت سرعتها تتهادى. وما إن همَّ بالتوقف حيث أراد الشاب المنتشي بانتصاره، عاجله هذا الأخير:
- ليس هنا. قلت لك. ألا تفهم. يا إلهي. ثم بلهجة آمرة حادّة: "تقدم !"

تقدمت السيارة ثانية. واعتدلت في الطريق الرئيسي. وما إن زوَّد السائق السرعة واقترب من مدار مدخل المدينة حتى أمره الشاب ثانية:
- هنا. توقف. سأترجل في هذا الموضع.

انزوى السائق بالسيارة مرة ثانية ناحية اليمين. وأوقفها. حينها قال الشاب: "سأترك لك هذا الطاكسي الخربة، عكِّرْ به شفتيك المشققتين أيها الجشع المتجاسر. ثم مخاطبا إيانا (نحن الركاب) : سلام عليكم. وألتمس منكم العذر يا رجال. أما أنت (موجها كلامه إلى السائق) أيها العلجوم الضخم، فتعلم ألاَّ تتجاسر ثانية على أحد. إن كانت دماغك الصلدة قادرة على التعلم أصلا !"

كنت أتوقع ردًّا عنيفا للباب. وهو ما كان. دفع ذاك الشاب الباب بكل ما أوتي من قوة، حتى خلت السيارة تمايلت ذات اليمين وذات الشمال. وكان صوتا عنيفا ذاك الذي دوّى في جنبات التاكسي.

ثم فُتح باب النقاش حول ما استجد. قال أحدهم: "ما كان يجدر بك مجاراته". قال السائق: "لو لم أتَّق فيه وجه الله لأريته عشرة نجوم في عز الظهر." فعقب آخر: "إنسان كذاك لا أمل يرجى من محادثته. إنه منخور من كل النواحي.. مغيب ذهنيا، محطم وجدانيا، وفي روحه مرضٌ يهشِّم قوائمه. مجاراته ضرب من ضروب اللاّتعقل".

ترجلتُ بدروي بعد مدة. اجتزت الطريق ومثل شهير يحضرني: "لا تجادل الأحمق. فقد يخطئ الناس في التفريق بينكما". كانت مقولة أثيرة لمارتن لوثر.